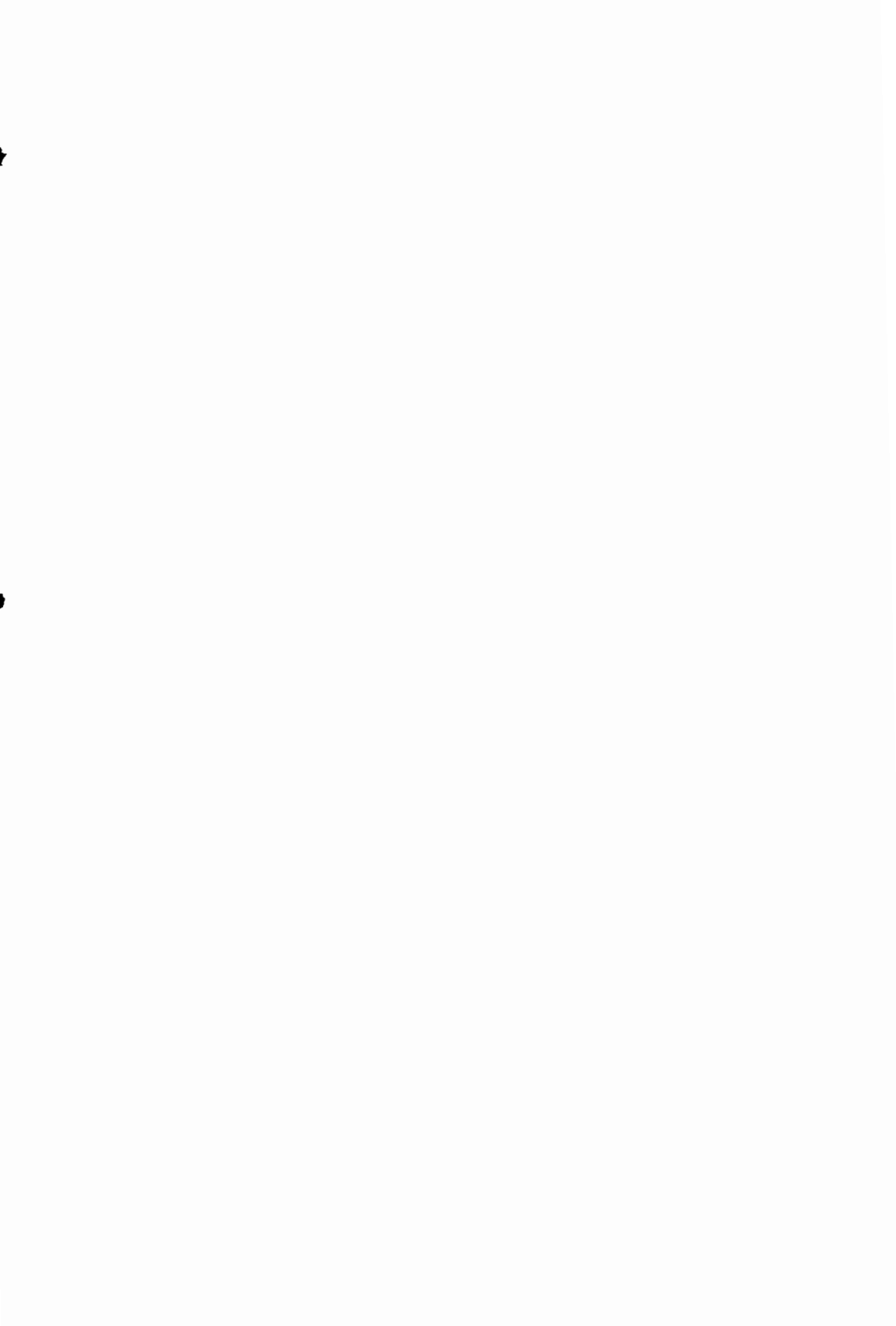


الإحلال الحركي في بنية فاء الثلاثي
دراسة صوتية مقارنة

رشيد حليم

جامعة الطارف - الجزائر



كثيرة هي الظواهر التي تعنى بها الدراسات اللسانية، والصوت أجلّ تلك الدراسات، ذلك أن الصوت هو جوهر الحدث اللساني، إنه المادة الخام للمنطوق البشري الذي يتأسس على وحدتين ملتحمتين لإيفاء غرض الإفادة. إنهما الصامت والصائت، ويعرف الأخير بالحركة.

الحركة ظاهرة لسانية متميّزة، وهي من أوضح الظواهر الشكلية البارزة التي عرفتتها منظومات اللغات البشرية عامة، والتشكيل الحركي هو القاعدة الركيّنة للسان العربي، الذي لم يكن بمنأى عن إدراك أهمية هذه الخاصية الصوتية الكلية التي شهدتها الألسن البشرية.

والواضح أن تساند اللسان العربي إلى الترميز العلامي برموز خطية، تشبه حركة الإصبع في عملية التشهد عند السادة المالكية، قد جاوز ما يملكه غيرها من اللغات، إذ لا تعادلها لغة أخرى في عدد الحركات وفي مواطن استعمالها، وفي دقة وظائفها التي أدتها منذ عهود طوال، ولعل الاستعمال الحركي في الإبانة عن دلالات الألفاظ، والتفريق بين الصيغ والمعاني من أخص خصائص اللسان العربي حيث تأسست علوم جلييلة تنطلق موضوعاتها من موقعية الحركة، كعلم الفقه، وعلم القراءات، وعلمي المباني والتركيّب.

ولقد حاول العلماء - قديماً وحديثاً - تتبّع ضروب استعمال الحركة الذي تتصدّر الكلم العربي في صيغته المعجمية، وذهبوا في بحث هذه المسألة الصوتية طرائق شتى وقدّموا بين أيدي الدارسين أفكاراً متباينة حاولوا من خلالها وضع نظريات تفسّر ذاك التنوع الأدائي في بنية اللفظة العربية.

إن اللفظ العربي في تركيبه أصواته قائم على أصول محكمة ومبادئ مضبوطة، إنه مؤسس على فلسفة لسانية بحثت لم تتوقّف لكثير من لغات العالم، ذلك أن كلّ أصل لغوي لم ينشأ اعتباراً فكل قاعدة في العربية معللة بعلة تبرّرها، إذ أن كل

لفظة في اللسان العربي أخذت سمتا معيناً حسب قواعد تأليفية خاصة روعيت فيه، سمّاها فقهاء العربية الأوائل: "الوضع"^(١).

والمقصود بالوضع التنشئة الأولى للفظ، كيف رُتبت أصوله؟، وكيف نُطقت؟ وما دلالاته الأصلية؟ لأن مفهومه الاصطلاحي هو ما لم يدل جزؤه على كـله^(٢)، وهذا الجزء هو الصوت (Phonème) وهو في العربية ينقسم إلى وحدتين صوتيتين عديمتي الدلالة، هما: الصامت والصائت، وهما منطبقان كوجهي عملة معدنية، الثاني لاحق بالأول ضرورة وتابع له في المبنى، وفي الوظيفة.

١ - النظام الحركي في اللسان العربي وأهميته :

لقد تنبّه علماء العربية القدامى إلى أهمية الدرس الصوتي فتحدّثوا عن موضوعاته وقضاياها، وحسبك أن تغلغل النظر في صنيع سيبويه (ت ١٨٠هـ) في كتابه^(٣) والجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في بيانه^(٤) وأبي الفتح (ت ٣٩٢هـ) في خصائصه^(٥)، ومنصفه^(٦)، وفي محتسبه^(٧) وفي أخص كتبه في الصوتيات الموسوم بـ: "سرّ صناعة الإعراب"^(٨). وغيرها من الكتب التي اهتمت بهذا العلم سواء في النحو أم في المعجم أم في كتب القراءات^(٩).

(١) الوضع، هو حالة تنشئة الملفوظ، وينطبق عليه مفهوم الاصطلاح

(٢) الزمخشري، المفصل، تقديم، وتبويب، وشرح علي أبو ملح، دار الجليل، بيروت، ص ٥٩.

(٣) الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ج ٣، ص ١٣٢.

(٤) البيان والتبيين، تقديم وتبويب، وشرح علي أبو ملح، مكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢، ج ٢، ص ١٠٦.

(٥) الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ج ٣، ص ١٢٠ وغيرها.

(٦) المنصف، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩، ج ١، ص ١٤٥.

(٧) المحتسب، الجزء الأول: تحقيق علي نجدي ناصف، والجزء الثاني تحقيق علي نجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦. وهو مصدر مذكّرنا في الماجستير.

(٨) سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندراوي، دار القلم، دمشق ١٩٩٣، وهو أول مؤلف متخصص في الصوتيات العربية.

(٩) ينظر مثلاً: أبو علي الفارسي، التكملة، تحقيق، كاظم بحر المرجان، طبعة عالم الكتب بيروت ١٩٩٩، ص ٣٣٨. وينظر مثلاً: معجم العين، وجمهرة ابن دريد وينظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري، وغيث النفع للصفاقسي.

ومثل هذه المذكرات النظرية والتطبيقية للدرس الصوتي العربي، إنما تعدّ خطوة متقدمة جدا في الدرس اللغوي العربي، وتنبئ عن انعكاس صحيح لما وصل إليه من تطور شمل موضوعات البحث فيه، وشمل سبل دراسته، التي صدرت عن الاتصال المباشر والحي بالظاهرة اللغوية^(١) وهذا الاتصال المباشر هو ما أكدته منهجية الدرس اللساني الحديث حين اعتبرت التواصل مع المتكلم احدى الخطوات التي يبشّر بها المنهج الوصفي ويرتكز عليها^(٢).

وهذا الإرث المعرفي المهم الذي أحاط بالدرس الصوتي العربي لقي اجتذابا صادقا من قبل المستشرقين، فقد أشار بريجشتراسر جوتهلطف (ت ١٩٤٠م) إلى غزارته وخصوبته، ومواطن الجدّة فيه، فاعترف بفضل علماء العربية في سبقهم إلى تتبع الظواهر الصوتية إلى جانب الهنود^(٣).

هذا الاعتزاز العلمي المشرف حجب به بعض باحثينا المحدثين الذين هونوا ما جادت به المكتبة التراثية العربية من دراسات لغوية، خاصة في مجال علم الأصوات، وقد ظلوا دهرًا على موائدها المعرفية من اللاقطين، ولكنهم لم يهتموا كثيرا بالإنتاج العلمي الذي قدّمه علماء البلاغة والموجهون للقراءات القرآنية، وعمّموا إطلاق مصطلح التقصير طعنا في منهجية مباحثهم تارة وفي مقاصد أغراضهم تارة أخرى، فقد تتابع أول عن تال في تنبيه الدارسين على مكن الخلل في الدراسة الصوتية العربية التي جعلت اهتمامها منصبا على دراسة نظام الصوامت وأغفلت نظام الصوائت، رغم أن هذا القسم الثاني لا يمكن ركنه، ذلك أن الحركة تمثل فونيمًا لا يقلّ في واقع الأمر عن الحرف أهمية، ويكفي أن نشير إلى أن تغيير الحركة في الكلمة العربية قد يساهم في تغيير دلالتها^(٤).

(١) عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت، ص ٣٣.

(٢) رشيد حليم، التعليل عند الخليل، مجلة الدراسات اللغوية، العربية السعودية، ٢٤، مج ٤، سنة ٢٠٠٢، ص ٩٧.

(٣) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ٤، ١٩٨٢، ص ٦٤.

(٤) الطيب بكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، تونس ١٩٧٣، ص ٩٢.

غير أن سهام الانتقاد التي وجهت إلى مجتهدِي الدرس الصوتي العربي الذين قصروا في دراسة النظام الحركي للسان العربي فيه تزيد تنفيه تلك التركة العلمية، فقد اتسمت الدراسات اللغوية العربية في غالبها بسمة الاتجاه إلى المبنى أساساً^(١)، ولاشك في أن النظام الحركي هو نواة نظام المبنى في العربية، وهو بكل تأكيد مركز المقطع الصوتي العربي، ويتمتع بقيمة خلافية في التشكيل الصوتي، كما يعتبر مناطا لتقاليب صيغ الاشتقاق المختلفة في حدود المادة الواحدة.

ونضيف إلى هذه الأهمية ما أبان عنه علماء العروض وشرحوه في موضوع الحركة حين عنوانا برصدها في موازين الشعر واعتبروها - على عكس ما فعله علماء الصرف - أهم من الأحرف الصحيحة^(٢) ويبدو أن الانتقاص من جهود السابقين في هذا الجانب هو مسaire لخط علمي رسمه علماء الساميات الذين اعتقدوا وجود تشابه في النظام الحركي بين العربية وأخواتها الساميات. ويعتمد هذا التشابه اعتمادا كبيرا على الأصوات الصامتة لا على الأصوات المتحركة، أو بمعنى آخر يرتبط تشكيل المعنى الرئيسي للكلمة في ذهن الساميين بالأصوات الصامتة فيها، أما الأصوات المتحركة فهي لا تعبّر في الكلمة إلا عن تحوير هذا المعنى وتعديله^(٣)، وهذا الموقف العلمي لا يقدم جديدا، فقد كان نحاة العربية مدركين لحقيقة تمايز كل من الحرف والحركة ورتبتهما فهم يقررون: "أن الحركات والحروف أصوات، وإنما رأى النحويون صوتا أعظم من صوت فسموا العظيم حرفا والضعيف حركة، وإن كانا في الحقيقة شيئا واحدا"^(٤).

إضافة أخرى وردت على السنة الأشهاد من محققي العربية، أن من أسباب

(١) تمام حسان، العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٢

(٢) المرجع نفسه، ص ٧١ .

(٣) رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة العربية، مطبعة الخانجي، ص ٤٥ .

(٤) غام قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد ١٩٨٦، ص ٣٤٤ .

انبثاق الدرس اللغوي هو الانحراف الحركي المهول في أداء اللفظ المعجز على الوجه الصحيح، حتى نهض الدؤلي والخليل بعمل يحسب في مآثرهما الخالدة حين أعجم الكلم العربي بقيود الأمارات على هيئات مختلفة لعلامات الحركة الدالة، وظيفه وقياسا في الكمية، وقد لُحِبَ بهذه النهجة الفذة التي اعتبرت مكسبا من مكتسبات الطريقة الوصفية الصحيحة^(١). نهجة استمدها الخليل من وحي معرفته بكلام العرب ومن منهجه التجريبي الذوقي^(٢).

والحق، إن موضوع الصوائت تمطى على بساط عريض في دراسات القدماء من خلال ربطه بعلوم تشاركه الموضوعات نحو علم الصرف والنحو والدلالة، وتشاركه الطريقة نحو علم العروض والموسيقى، وهو ما تفتن إليه الخليل الذي قيل عنه إنه خلف مؤلفين، أولهما في الشكل والتنقيط، والآخر في الموسيقى^(٣)، وابن جنبي أسبق العلماء المتلفين لعلم الخليل ومنهجه، فقد نبأ عن هذا الترابط المعرفي والمنهجي - الذي وعاه أستاذه - بين الحركة والأجرام الموسيقية، بقوله: "إن علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة بالموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم"^(٤).

حقا، إن موضوع الحركات في اللسان العربي وفي غيره يمثل للمتلقي صعوبة في الدرس النظري، وفي الأداء السليم، وقد أرجعها بعض الدارسين إلى عوامل مختلفة، نذكر أهمها:

*- إن الحركات في اللسان العربي متعددة، فهناك القصيرة، والطويلة، وهناك

(١) عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة، بيروت، ص ٥٣.

(٢) الخليل، العين، تحقيق الخزومي والسامرائي، طبعة دار الهجرة، إيران، ج ١ ص ٤١.

(٣) مجدي إبراهيم، في أصوات العربية، النهضة المصرية، ص ١٣.

(٤) سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ٣٣.

البسيطة، والمركبة، مثل الإشمام^(١) والاختلاس^(٢).

*- يتعلق نطق الحركات باختلاف البيئات الإقليمية والحضارية، فهناك العربي، والمغرب والمستعرب.

*- إن الحركات في العربية تعرضت للتغير تبعاً لعوامل الزمان والبيئة والجنس^(٣).
والمؤكد في هذا التفصيل أن الحركات في اللسان العربي تتمتع بحضور غائي متميز وفارق في بنيات اللفظ، ذلك أنها تدخل في بناء الصيغ وتنويعها، فهي لا تقل شأنًا عن دراسة الصوامت وإن لم تكن أولى منها بالاهتمام^(٤)، اهتمام رصدناها في خوالد الآثار العلمية التي اهتمت بدراسة التشكيل الحركي، خاصة في كتب المعاجم كجمهرة ابن دريد^(٥)، وفي كتب الاحتجاج للقراءات المحققة مؤخرًا، والتي لو اطلع عليها اللسانيون العرب المحدثون لكان موقفهم من ضعف دراسة القدماء للنظام الحركي مغايرًا^(٦).

ولقد لاحظ علماء العربية وغيرهم أن خصائص اللسان العربي إنما هي في أصوله العلمية الموجودة في جذوره الصوتية حتى اعتقدنا أن طريقة التصويت العربي تابعة لنشأة لغته في أنهما من لطيف الصنعة الإلهية^(٧)، ومن مناظ الحكمة الربانية

(١) مفهوم الإشمام: هو إيماء بالشفيتين بعد إخلاص السكون للحروف ولا يصل إلى السمع. ويقابله عند الكوفيين الروم، ولا يكون إلا في الضم.، ينظر ابن الباذش، الإقناع في القراءات السبع، حققه وعلق عليه محمد شرف، نشر دار الصحابة للتراث، مصر، ص ١١٥

(٢) الاختلاس: هو الإسراع بالحركة إسراعًا يحكم السامع به أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن ينظر مكّي بن طالب، الكشف، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٨ ج ١، ص ١٢٢

(٣) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٩.

(٤) مجدي إبراهيم، في أصوات العربية، النهضة المصرية، ص ١٦.

(٥) في الجمهرة توجيهات صوتية مهمة، سيعود الباحث إلى دراسته في بحث آخر مستقل.

(٦) من أعظم كتب الاحتجاج للقراءات التي حققت مؤخرًا، نذكر: الدر المصون للسامين الحلبي، حقق سنة ١٩٨٦، والحجة لأبي علي الفارسي أكمل تحقيقه سنة ١٩٩٣

(٧) نشأة ضبيان، علم أصوات اللسان العربي، دار ابن حزم، بيروت ١٩٩٧، ص ٢٦

الشريفة^(١)، وقيام ثرائه على العلامات التصويتية البنائية والوظيفية، وعلى التغيرات الحركية التي تلحق بنية اللفظة، وقد حاول العلماء تفسير علل حدوثها، شارحين مراميها^(٢).

٢- الإحلال الحركي في بنية اللفظة العربية:

أ- المفهوم الصوتي للحركة:

للعلماء العربية السابقين حسّ علمي مرهف حين عددوا أصوات العربية، فشرحوا طبيعتها وحلّلوا صفاتها، وخصائصها، كما فرّقوا بين الأصوات، فأطلقوا مصطلح الصوامت على الأصوات الساكنة، وعدوه صنفًا أولًا، أما الصنف الثاني فسموه الصوائت أو الحركات^(٣)، وقد شاعت مصطلحات أخرى مقارنة لهما، منها ما استمد من بيعة القراء والمجودين، فسموا الحركات الأصوات الذائبة، والممدودة^(٤)، والجوفية، والهوائية، والأخيران من استعمال الخليل، والأصوات المصوتة^(٥)، وشارك المحدثون في تبني اصطلاحات أخرى بديلة، فسمها إبراهيم أنيس أصوات اللين^(٦)، وسمّاها تمام حسان أصوات علة^(٧)، وسمّها محمود السعران الصوائت^(٨)، وأبقى كمال بشر على التسمية الأولى^(٩)، وحافظ أحمد مختار عمر على ما أطلقه السعران^(١٠)، ولا ضير في استعمال جميع هذه المصطلحات

(١) الخصائص، ج ١، ص ٤٤.

(٢) مجدي إبراهيم، في أصوات العربية، ص ١٦.

(٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٢٠.

(٤) غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ٣٤٣.

(٥) م، ن، ص ٣٤٤.

(٦) الأصوات اللغوية، ص ٢٦.

(٧) العربية معناها ومبناها، ص ٦٨.

(٨) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٧، ص ٧٣.

(٩) علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ص ١٥١.

(١٠) دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ص ١١٣.

جميعاً للمتخصصين، ويستحسن الاكتفاء بمصطلحي الحركة أو الصائت، مادام المصطلحان يؤديان الغرض العلمي المطلوب، ويوفيان بطبيعة الدرس الصوتي المعاصر.

واستخدام مصطلح الحركة أحسن لارتباطه بالحرف وموضعه، وعلّة تسميتها أنها تعلق الحرف وتحركه عن موضعه الذي تقترن به، وتجذب نحو الحروف التي هي أبعضها، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجذب نحو الياء والضمّة تجذب نحو الواو^(١).

ومعنى هذا أن الحركة لا يبدأ بها في النطق وإنما تلي الصامت دائماً، فلا تسبقه، ولا تزامنه في تكوينه، وما صاغه ابن جنّي يدرك علماء الأصوات أهميته العلمية، يقول كمال بشر: "فالحركات إنما سميت كذلك - على رأيهم - لأنها تحرك الحرف، وتقلقه، أو كما قال بعضهم لأنها تجذب نحو "الحروف" التي هي أجزاءها"^(٢). والذي يفهم مما سبق أن الحركات لصيقة بالحروف، وهي ضربان، بحسب طريقة نطقها:

* * - حركات قصيرة: حيث يتكون نظام الحركات في العربية من ثلاثة أجزاٍ قصيرة أساسية، الفتح، الكسر والضم^(٣)، وكان ابن جنّي قد ضبط ترتيبها، الفتحة أولى الحركات، وأدخلها في الحلق، والكسرة بعدها والضمّة بعد الكسرة^(٤).

* * - حركات طويلة: وهي الحركات المقابلة للحركات القصار، وقياس الفرق بينها يتمثل في كمية الهواء الخارج مع الصوت وفي الوقت الذي يستغرقه النطق بكل منها، وقد سبق ابن جنّي أن أشار بأدلة كثيرة على أن الحركات القصيرة

(١) سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ١٨.

(٢) علم الأصوات، ص ١٥٥.

(٣) جان كانيينو، دراسة في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، تونس ١٩٦٦، ص ١٤٧.

(٤) سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ١٨.

أبعاض حروف^(١)، أي متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه نحو عامر في عمر وعينب في عنب وعمور في عمر، فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها ما نشأت عنها، ولا كانت تابعة لها^(٢)، ومن ثمة فالحركة الطويلة هي تضعيف للحركة القصيرة، فالألف متكون من ففتحين، والواو من ضمّتين، والواو من كسرتين.

وبناء على ذلك نستخلص توصيفات كل حركة :

*- الفتحة: حركة قصيرة "a" هي نصف ألف المد الذي هو حركة طويلة "a a" الناتج عن إشباع الفتحة.

*- الضمة حركة قصيرة "U" هي نصف واو المد التي هو حركة طويلة "UU" ناتجة عن إشباع الضمة.

*- الكسرة حركة قصيرة "E" هي نصف ياء المد التي هو حركة طويلة "EE" ناتجة عن إشباع الكسرة.

وهذه المقابلة كافية وحدها لتمييز معنى كلمتي كتب وكاتب مثلا، وعرض الطيب بكوش ما تحمله الحركات من خصائص صوتية:

*- تمييز الحركة عن الحرف بانعدام قيام حاجز في جهاز التصويت

*- جميع الحركات مجهورة

*- ترتيب الحركات مثل الحروف حسب مواضع نطقها ودرجات انفتاحها وصفاتها^(٣) وهذا الرأي مخالف لما سطره ابن جني.

وحددت الدراسات الصوتية الحديثة كيفية حدوث الحركات التي توصف بأنها

(١) مصطلح أبعاض حروف ينسب إلى المبرد، وقد تلقفه ابن جني، ينظر المقتضب، تحقيق، عبد الخالق

عزيمة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٤، ج ١ ص ٢١١.

(٢) سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ١٨.

(٣) الطيب بكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص ٥١

مجهورة، حيث يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم، دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء ودون أن يضيق الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً^(١).

ب: المفهوم الصوتي للإحلال الحركي^(٢):

الحركات وحدات صوتية صغرى متميزة، تشارك الحرف في تحديد عملية التصويت، وبذلك يكون اختيارها في التأليف مقصوداً قد يسهم في تمييز اللفظ عن غيره صيغة ودلالة، وقد يأتي لمظهر آخر مغاير هو التنبيه على التلوين الصوتي للكلمة العربي الموضوع في أوائله دون إحداث تغيير دلالي معجمي أو سياقي، وهذا ما يطلق عليه الإحلال الحركي، أو الإحلال بين الصوائت.

والإحلال بين الصوائت أو ما يعرف في اللغة الإنجليزية "Replacement of short vowels" عبارة عن حركة تبادلية بين الصوائت الثلاثة القصار، ويتسلط هذا التبادل على أول اللفظة أو وسطها دون إحداث تأثير في تحوير معناها، نحو ود بضم الواو، وكسرها.

ومن ثمة يفهم الإحلال الحركي على أنه اختلاف في ضبط حركة أول الكلمة أو وسطها وصحة نطقها على وجهين أو ثلاثة للدلالة على تنوع الأداء من جهة وعلى التيسير في النطق من جهة أخرى، ولاشك في أن هذا التلوين الصوتي في بنية الكلمة العربية يمثل خاصية صوتية متفردة لا نعرف نظيراً لها في اللغات الأجنبية، وقد عرف علماءنا السابقون هذه الظاهرة إلى علي بن المستنير الملقب بـ: "قطرب" (ت ٢٠٦هـ) يعود اكتشاف هذه الظاهرة الصوتية، إذ وضع كتاباً في الكلمات ذات الأصل المعجمي الواحد والتي تخالفت حركة الفاء فيها بين ضم

(١) علم الأصوات، ص ١٥١.

(٢) آثرنا استخدام مصطلح الإحلال الحركي، لأنه يتعلق بعملية تبادلية بين الصوائت دون علة توجيهها عكس التغيير الحركي المرتبط بالإحلال أصلاً.

وكسر وفتح، ونسبت إليه فسميت بـ: "مثلثات قطرب" ومثال تلك المثلثات: الغَمَر: الماء الكثير، والغَمِر: العداوة، والغُمر: الذي لم يجرب الأمور^(١).

ولقد تعرض العلماء إلى هذه الظاهرة الصوتية، فقد أرجعها أحد العلماء إلى أنها حالة تطور في صلب اللغة السامية، وقد بقيت مترسبة في اللغة العربية^(٢)، وهذا التفسير يعتوره الضبط العلمي، على أن هناك من الباحثين من فسّر هذا الإحلال الحركي بمسوغات أخرى نحو القول بميل البنية المنطوقة إلى التخلص من صعوبة التوالي الحركي المشابه^(٣)، وهذا السلوك المقطعي في اللسان العربي إنما يفسّره علماء الأصوات في ضوء نظرية الانسجام الحركي.

٣- التشكيل الحركي في أول الكلمة الثلاثية:

يتصل هذا المبحث بالأداء الصوتي المتعلق بالتركيب البنيوي في الكلم العربي وما يلحقه من إحلالات حركية في فاء مادة لغوية ذات وحدة معجمية غير متغيرة الدلالة، وقد قصرنا التحليل على نماذج لهذا الإحلال وفق ما أحضرته المدونة اللغوية المنقولة التي تمثل أدلة قطعية على سلامة قواعد العربية، وصحة ضوابط اللسان الفصيح^(٤).

إن مسألة الإحلال الحركي في شكل اللفظة يتعلق أساساً بالكلام المنطوق، حيث رويت ألفاظ على صور خطابية متغيرة الحركة سواء كانت في أول الكلمة أم في وسطها، ثلاثية الحروف كانت الكلمة أم غير ثلاثية، غير أننا وحصراً للموضوع سنركز على صور لإحلالات حركية وردت في ألفاظ ثلاثية الأصول في قراءات قرآنية سبعة، في غير الفعل وفي غير الأداة، كما سنركز على ضربين من الإحلال

(١) البطليوسي، المثلث، تحقيق صلاح الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١، ج ٢، ص ٣١٥.

(٢) في اللهجات، ص ٩٠.

(٣) عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية، جامعة القاهرة ١٩٧٧، ص ١٨٥.

(٤) يعتبر القرآن الكريم وقراءاته المصدر الرئيس في المدونة اللغوية العربية، ويمثل أدلة ثابتة على صحة قواعد العربية.

الحركي، ثم نبرز بعض آراء الباحثين في هذه القضية، ناقدين ومقومين.

أ - حركتا الضم والكسر: الضم والكسر حركتان قويتان إذا قورنتا بالفتحة والسكون، والضممة أثقل من الكسرة^(١) وذلك لتمتع حركة الضم بخواص صوتية أقوى، فهي خلفية، منغلقة، ومستديرة أما الثانية فهي أمامية منغلقة ومنفرجة^(٢)، ومن الألفاظ التي حوت هذا التبادل ما تذكره كتب القراءات.

* - قرأ الاخوان^(٣) وهما المنتسبان إلى قبيلة أسد البدوية ﴿بمَلِكِنَا﴾^(٤) و﴿سُخْرِيَا﴾^(٥) وقرأ الحرميان^(٦) بكسر الميم في اللفظة القرآنية الأولى وبكسر السين في الثانية^(٧).

* - ما نقله السيوطي في مزهره "طوى" و"سوى" بضم الطاء والسين منقول عن البدو وبكسرهما مأثور عن الحضرة^(٨).

أرجع بعض الباحثين المحدثين هذا الإحلال بين الصائتين إلى:

١- العامل الاجتماعي:

يعدّ المجتمع والبيئة مختبرين للبحث اللساني، حيث يشاركان في تفسير الحدث اللغوي وتأسيس هذا المنحى العلمي على صيغتي البيئة والمجتمع، يجد

(١) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص ٥٠.

(٢) هذه الخاصية الصوتية المزدوجة للضممة، فهي خلفية في مستوى الحلق، والاستدارة في مستوى الشفتين، والمقصود بالاستدارة أن الشفتين تكونان عند النطق بها مستديرتين (بينما تنفرجان عند النطق بالكسرة أو الفتحة)، ويقصد بالأمامية أي لا تشاركها فيه حركة أخرى من حيث رتبة المخرج، ينظر التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص ٥٠.

(٣) الاخوان: هما حمزة والكسائي، قارئا الكوفة

(٤) طه : ٨٧/٢٠ .

(٥) المؤمنون ٢٣/ ١١٠ .

(٦) الحرميان : هما نافع وابن كثير قارئا المدينة ومكة، ويمثلان البيئة الحجازية المتحضرة.

(٧) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف، دار المعارف، ص ٤٨٨ .

(٨) السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق جاد المولى بك، وأبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي، المطبعة العصرية، بيروت ١٩٨٧، ج ٢، ص ٢٧٧ .

مبررا في إدراك الاختلاف اللغوي الذي هو راسب اجتماعي، وقد يتعلق بالمجموعات البشرية التي تنتمي إلى محيط حضاري مشترك، كما نلقى ذلك واضحا في البيئات العربية التي لها أنماط لهجية خاصة.

وبناء على هذا المعطى فسّر إبراهيم أنيس^(١) وعبد الراجحي^(٢) وداود سلوم^(٣) وسالم محيسن^(٤) ومحمد خان^(٥) وعلم الدين الجندي^(٦) وغيرهم^(٧) هذا الإحلال الحركي بين الضم والكسر على أنه من مؤثرات البيئات العربية، وطابقوا بين العلامة الحركية ومقار القبائل، فنسبوا البنية الصوتية التي وردت مضمومة الفاء إلى البيئة النجدية حيث تسكن قبائل تميم وأسد وقيس وقد كانت مساكنهم بشرق جزيرة العرب، أما الصيغة الثانية (مكسورة الفاء) فقد نسبوها إلى البيئات التي تقع غرب الجزيرة حيث تقطن كنانة وقريش. فالأداء بحركة الضم - وهو حركة قوية - يبين مجانسة الواقع الاجتماعي المرير مع السلوك اللهجي لتخاطبي تلك القبائل البدوية، بينما أخبرت حركة الكسر عن واقع آخر بديل مخالف للأول.

٢- المقياس النفسي :

لعل من أبرز اهتمامات علم النفس اللغوي هو دراسة العلاقة بين الفكر واللغة وكيفية فهم الكلمات والجمل، ويشمل العمليات العقلية عند المحدث قبل صدور اللغة وعند المتلقي عقب صدور اللغة^(٨).

(١) في اللهجات، ص ٩١.

(٢) عبد الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية.

(٣) داود سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة.

(٤) سالم محيسن، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية.

(٥) محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية.

(٦) علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث.

(٧) يوهان فك، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، وعبد الوهاب حمودة، القراءات واللهجات.

(٨) داود عبده، في علم اللغة النفسي، مسناة الإسكندرية، ص ١٨.

وتحصيلاً لهذا الفهم، ربط بعض الدارسين النطق بالصائتين على الوجهين (بالضم وبالكسر) بالطبيعة النفسية للمتكلمين، فحركة ضم الفاء في الثلاثي المنسوب إلى قبائل البدو يشكل مظهراً من مظاهر صعوبة الحياة وقد بصمت تلك الظروف منطوق أصحابها، فلاءمت حركة الضمة غلظة الطبع وتوعّر الأداء وشدته، بينما جنح أهل الحجاز إلى إثارة حركة الكسر^(١)، التي اعتبرت دليلاً على التحضر، ومن سمات الحضرة الرقة والتلطف، فقد سبق قدمائنا أن نحووا أن الناشئ في البادية يطوع لسانه بضممة يجفو عنها لسان الحضري^(٢). وأكد إبراهيم أنيس أن حركة الكسر دليل التحضر في معظم البيئات اللغوية، فهي حركة المؤنث والتأنيث محل الرقة إضافة إلى أن الكسرة في كثير من اللغات ترمز إلى صغر الحجم والرقة وقصر الوقت^(٣).

– المقياس الفيلولوجي:

يرى المستشرق الألماني برجستراسر أن اللغة السامية تحمل حركة واحدة كاملة تشمل حركتين، أساسية وهي الفتحة، وأخرى تناوبية، إما ضمة أو كسرة، وهذان الصائتان الأخيرتان لا فرق بينهما في الأصل معنى ووظيفة^(٤)، ولاحظ أن الاختلاف بين الضم الكسر تمّ غالباً في تلك الفترة التي انفصلت فيها الحركتان، وأصبحت كل واحدة منهما وحدة صوتية مستقلة قادرة على المشاركة في ضبط بنية الكلمة حيث تؤدي إلى تغيير المعنى أحياناً، وأحياناً أخرى يظل معنى الكلمة هو دون تغيير.

ب- حركتا الضم والفتح:

ضرب آخر من الإحلال الحركي في فاء الثلاثي وقع بين حركتين متقابلتين،

(١) في اللهجات، ص ٩٤.

(٢) الأزهري، معاني القراءات، تحقيق، فريد الزبيدي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩، ص ٤٢.

(٣) إبراهيم أنيس من أسرار اللغة، الأنجلو المصرية، ص ٨٠.

(٤) التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه رمضان عبد التواب، مطبعة الخانجي، ٢٠٠٣، ص ٧٤.

الضمة وقد اعتبرت أقوى الحركات، والثانية عدت الأضعف وهي الفتحة وقد وصفت بأنها وسطية قريبة من الضمة، منفتحة ومنفرجة^(١)، وبناء على التقسيم المكاني الذي طرح سابقا يكون النطق بالضم موافقا للغة البيئة البدوية، وهو ما نسب في قراءات حمزة والكسائي ﴿كُرْهَا﴾^(٢) و﴿وُلْدَا﴾^(٣) و﴿سُقْفَا﴾^(٤). قرأها بضم الفاء جميعها وقرأها بالاقون بفتحها^(٥).

٤- النقد والتقويم:

أ- الرد على التقسيم الجغرافي للبيئات اللغوية:

١- القول في مصطلحي البداوة والحضر:

لقد فسّر الإحلال الحركي على معطيات الجنس والبيئة والزمان من خلال لفظة واحدة جامعة لهذه المفاهيم الثلاثة، وهو مصطلح "بادية" الذي لم نعثر عليه في أشعار المتقدمين من شعراء الجاهلية، ولم يرد في القرآن إلا لفظة فريدة في سورة يوسف جاء بكم من ﴿الْبَدْوِ﴾^(٦)، كما وردت لفظة ﴿الْبَادِ﴾^(٧)، فمعناه الداخل على مكة سواء كان من البادية أو من الأمصار، فالتعبير يراد به الشمول^(٨)، أما لفظة البدو فهي تعني الأرض التي سكن فيها يعقوب، ومن ثمة فلا دلالة لهذه اللفظة على مستوى حضاري معين، مما ينفي القول بانقسام اللغة العربية إلى مناطق لغوية محددة، ونرجح أن يكون هذا المصطلح دال على الترحال

(١) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص ٥٠.

(٢) النساء/٤/ ١١.

(٣) القصص، ٥٩/٢٨.

(٤) الزمر ٦/٣٩.

(٥) السبعة في القراءات، ص ٢٢٨.

(٦) يوسف ١٢/١٠٠.

(٧) الحج ٢٢/٢٥.

(٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تحقيق، محمد البردوني، طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٩٦.

والتنقل وهي صفة تطلق على ما يعرف بـ: "nomades" وهذا مما أدى إلى التداخل اللغوي بين القبائل العربية، ودليلنا في ذلك:

– قراء الأخوين ﴿فَلَامَهُ﴾^(١) بكسر الهمزة والباقون بضمها.

– ينطق التميميون لفظة "القرح" والبخل" بفتح الفاء والحجازيون بضمها^(٢).

– الترجيح:

والذي نرجّحه أن الحركتين موجودتان معا في كل بيئة من البيئتين، وذلك أن مقياس عزو هذه الأبنية الصوتية حسب الإحلال الحركي إلى بيئات معينة غير سديد ولا يمثل قاعدة علمية، ومن ثمة نقرّب بضعف مقياس تصنيف ظواهر اللغة العربية حسب قانون الثقل والخفة، كما نقرّب بحضرية هذه اللغة وأن كلام العرب نابع من مشكاة واحدة، هي اللغة النموذجية.

ب- الردّ على المستشرق برجشتراسر:

إن القول بأن العربية قد حافظت على الموروث السامي في الإحلال الحركي من خلال ميلها إلى التخلص من إحدى الحركات، فهو خلط ظاهر فالصوائت في العربية ليست ترميزا غير معلل، كما أن اللسان العربي دقيق لا يحمل غير المقصود، ولعل وجود الحركات الإحلالية دلالة على التوسع، كما نعتبر رأي برجشتراسر افتراضا تاريخيا لم تثبته الأبحاث العلمية الجادة، إضافة إلى فقدان الدليل التاريخي في مثل هذه الأحوال، كما أن الباحث يتحوّب من آراء المستشرقين عامة ودارسي المقارنات جملة.

ومجمل الردّ على هذه الآراء، قولنا إن الإحلال الحركي في أول اللفظ الثلاثي بين الحركات الثلاث القصار أمر طبيعي، لأن الفرق بينها ظاهر في المقدار الزمني للصوت، واختلاف بسيط في وضع اللسان، إضافة إلى تشابه طبيعة هذه الحركات.

(١) النساء/٤/١١.

(٢) علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس، ج ١، ص ١٧٦.

خاتمة :

لن تكون خاتمة هذا العمل تحصيلا جامعا لما بسطناه في العرض، و قد ناقشنا آراء عزت هذا الإحلال، وإنما أقدم بين أيدي الدارسين مجموعة من النتائج تصلح للمتابعة العلمية .

***- إن الإحلال الحركي في العربية ظاهرة صوتية متفردة، و يجب دراستها وفق قواعد المناهج اللسانية الحديثة، إذ يقدم المنهج الوصفي تقارير عن التخالف في اللغة المنطوقة، نحو تقارير عن الانسجام الحركي، وعن دور المتكلم العربي الأنموذج الذي ينزع إلى الاقتصاد في الجهد، والميل إلى التيسير في الأداء، فوجب ربط الظاهرة بهذه العوامل المشفعة .

***- يقدم المنهج التوليدي التحويلي تبريرات علمية لهذا الإحلال، إذ يمكن ربطه بمبدأ الأصلية والفرعية، أو مبدأ ترتيب الحركات في نظام اللسان العربي .

***- لا يمكن إتمام هذا الجهد العلمي دون الاعتماد على الذخيرة اللغوية من أجل إقامة مسح لغوي يختم بمعجم يفهرس تلك المفردات التي حصل فيها هذا الإحلال .

***- إن اللسان العربي متميز بخواص صوتية ثابتة، وقد مثل وحدة المتخاطبين به عبر العصور والبيئات .

***- إن القول بانقسام البيئات اللغوية العربية حسب النموذج القبلي - بدو وحضر - لا يثبتته الواقع الجغرافي، فقد امتدت حركة القبائل العربية شمالا وجنوبا، يمنا وشاما، مكن من تشكيل اللسان العربي الأنموذج .

المصادر والمراجع

- * إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- * إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، الأنجلو المصرية، ١٩٩٩.
- * إبراهيم أنيس، في اللهجات، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- * أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، طبعة عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢.
- * أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، طبعة عالم الكتب، القاهرة.
- * الأزهري، معاني القراءات، تحقيق: فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩.
- * ابن الباذش، الإقناع في القراءات السبع، حققه وعلق عليه محمد شرف، نشر دار الصحابة للتراث، مصر.
- * برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه: رمضان عبد التواب، مطبعة الخانجي، ٢٠٠٣.
- * البطليوسي، المثلث، تحقيق صلاح الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١.
- * تمام حسان، العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨.
- * الجاحظ، البيان والتبيين، تقديم وتبويب وشرح علي أبو ملح، مكتبة الهلال، بيروت ط٢، ١٩٩٢.
- * جان كانتينو، دراسة في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، تونس ١٩٦٦.
- * ابن جنبي، الخصائص، تحقيق علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- * ابن جنبي، المنصف، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩.

- * ابن جنبي، المحتسب، تحقيق علي نجدي ناصف، والجزء الثاني تحقيق علي نجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦.
- * ابن جنبي، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندأوي، دار القلم، دمشق ١٩٩٣.
- * الخليل، العين، تحقيق السامرائي، والمخزومي، طبعة دار الهجرة، إيران.
- * داود سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- * داود عبده، في علم اللغة النفسي، منشأة الإسكندرية.
- * رشيد حليم، التعليل عند الخليل، مجلة الدراسات اللغوية، العربية السعودية، ع ٢، مج ٤، سنة ٢٠٠٢.
- * رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة العربية، مطبعة الخانجي، القاهرة.
- * الزمخشري، المفصل، تقديم وتبويب وشرح علي أبو ملحم، دار الجيل، بيروت.
- * سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨.
- * السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق جاد المولى بك، وأبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٨٧.
- * الطيب بكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، تونس ١٩٧٣.
- * عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية، جامعة القاهرة، ١٩٧٧.
- * عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت.
- * عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة، بيروت.
- * علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس.

- * أبو علي الفارسي، التكملة، تحقيق كاظم بحر المرجان، طبعة عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٩.
- * غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد ١٩٨٦.
- * القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: محمد البردوني، طبعة دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢.
- * المبرد، المقتضب، تحقيق عبد الخالق عزيمة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٤.
- * ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.
- * مجدي إبراهيم، في أصوات العربية، النهضة المصرية، القاهرة.
- * محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية، دار الفجر، القاهرة.
- * محمود السمران، علم اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧.
- * مكّي بن طالب، الكشف، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨.
- * السمين الحلبي، الدر المصون، دار التراث، دمشق، ١٩٨٦.
- * نشأة ضبيان، علم أصوات اللسان العربي، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٧.
- * يوهان فك، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ترجم وقدم وعلق عليه وصنع فهارسه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط ٢، القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م.